سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

**الكاتب، الناشط، المؤسسة**

# رحيل سهيل إدريس في الصحافة العربية

إلياس خوري، أحمد دحبور، عبد العزيز المقالح، عبد الرحمن مجيد الربيعي

تواصلت المقالات عن رحيل سهيل إدريس. وكانت الآداب في العدد الماضي قد نشرت حوالى ٢٥ مقالاً ودراسةً، وننشر هنا أربعة مقالات من نيويورك وفلسطين واليمن وتونس لكتّاب من لبنان وفلسطين واليمن والعراق.

## في معنى الرثاء

إلياس خوري

افتتاحيةُ الآداب التي وَصَفَ فيها سماح إدريس مأتمَ والده، كاتبِنا الكبير سهيل إدريس، أبْكتني. فأنا لم أحْضر المأتمَ لأنّني بعيدٌ هنا في نيويورك. ولأنّني بعيدٌ، فقد سَمحتُ لنفسي بأن أَنْظر إلى الموت في وصفه استعارةً للحياة. قلتُ إنّ موتَ الكاتب ليس إلاّ وهمًا؛ فنحن نتعامل مع الكتّاب الغائبين في وصفهم أحياء. وتذكّرتُ أنني في إحدى الندوات سُئلتُ عن أثر موت إدوارد سعيد، فقلتُ إنّ الرجل لم يَمُتْ إلاّ مجازًا، وإنني حين أشتاقُ إليه (وهذا يَحْصل في شكلٍ دائم) أفتح أحدَ كتبه وأُحاورُه وأشربُ معه كأسَ نبيذ.

غيابي عن مأتم «الدكتور،» مثلما نسمّيه، جعلني في حِلٍّ من ظلمات الحزن. فالحزن مراتبُ ودرجات، أقساها هو ذلك الوادي المظلمُ الذي يأخذنا إليه الموتُ. فحين يصير شخصٌ قريبٌ وحبيبٌ مجرّدَ جثةٍ هامدة، يجتاحنا ذلك الظلامُ الذي لا تبدِّده الدموعُ.

سماح إدريس لم يَرْثِ والدَه، لكنّه روى لنا بدقةٍ تلك اللحظاتِ التي تَدفع بنا إلى مرتبة حزن الوادي المظلم. ندمتُ لأنني قرأتُ المقال؛ فقد أعادني من المجاز إلى الحقيقة. والحقيقةُ القاسية هي أنّ الموت موتٌ، وأننا مهما قلنا عن المجاز وتحدّثنا عن استمرار الحياة بأشكالٍ مختلفة، فإنّ هذا لا يغيِّر من حقيقة ذلك الفراغ الرهيب الذي يصنعه موتُ مَن نحبُّهم.

منذ لقاءاتي الأولى بسهيل إدريس وهو يحتلّ في حياتي حيّزًا اسمُه الصداقة. لا أَعْلم كيف نَمَتِ الصداقةُ بين الفتى الذي كنتُه، وبين الكاتب ورئيسِ التحرير الذي كانه: شيءٌ من سحر لعبة الأدب، ومن العيش على حافة الخيال، ومن متعة المواقف الصعبة في الأوقات الصعبة. عَبَرنا الحربَ الأهلية، وواجهْنا وحشَ الاحتلال الإسرائيلي، وتَجرَّعْنا زمنَ النكبات العربية، ولم نَهَنْ أو نتراجعْ. كان سهيل إدريس ابنَ المرحلة الناصرية، وكنتُ ابنَ المرحلة الفلسطينية. ورغم ما في المرحلتين من اختلافٍ وتناقضات، إلاّ أنّ ما جمع جيلي بالدكتور هو الموقفُ الثابتُ من الحداثةِ والقضيةِ الوطنيةِ والأفقِ العَلماني الديموقراطي.

كان ابنَ البدايات الجديدة، الذي صَنَعَ حلمَ الوحدة العربية المجهَضة. كانوا [كتّابُ تلك البدايات ـ الآداب] يكتبون ويتمرّدون، يذهبون إلى الشعر الحديث، أو يترجمون الوجوديةَ، أو يكتبون الروايةَ الحديثة، وهم على ثقة بأنّ الأرضَ ثابتةٌ من تحت أقدامهم: فمن جهةٍ يقف عبدُ الناصر بجماهيريته وشعبويته، ومن جهةٍ أخرى تأتي ثورةُ الجزائر لتعلنَ نهايةَ المرحلة الكولونيالية. أما نحن فقد وُلدنا في ليل الهزيمة الحزيرانية، وعندما بدأ الأملُ يلوحُ بعد معركة الكرامة جاء أيلولُ الأسود وغرقنا في دم الحرب اللبنانية الطويلة. ومع ذلك، كانت تجربتُنا محاولةً لإكمالِ ما بدأه جيلُ الحداثة، وكنا نفتّش عن الأمل في ركام اليأس، ونبحث عن التغيير وسطَ رياح الفوضى الشاملة.

بقي سهيل إدريس ومجلتُه ودارُ الآداب منبرًا للتواصل بين الأجيال، وعلامةً عن قبسٍ يَرفض أن يخبو، وإرادةً لا يزعزعها مكرُ التاريخ. لذا لم تنقطع العلاقةُ بسهيل إدريس، بل ازدادت رسوخًا. كان شيخُ الأدباء اللبنانيين يَصْنع ملحمتَه في الروايات والقواميس والمقالات. كان أشبهَ بمرآة الأدب العربي المعاصر؛ كأنه كان حارسَ بيروت التي رَفَضتْ ولا تزال تَرفض الاعترافَ بنكباتها، وقرّرتْ أن تواصل حكايتَها مع الحرية على الرغم من كلّ شيء.

لكنّ مقالَ سماح إدريس جاء ليروي لنا الحكايةَ الإنسانيةَ التي تقع خلف الحكاية التي نعرفها. فقد روى اللحظاتِ الأخيرةَ وما بعدها، وتحاوَرَ مع الميت كأنه حيّ، وكأنّ الحكايةَ لم تنتهِ عندما انطفأت الحياةُ في الرجل، بل تُتابع مسيرتَها بالموت ومعه.

تذكّرتُ أيامَ سعد الله ونّوس الأخيرةَ، وتذكّرتُ فيلمَ عمر أميرالاي عندما كان ونّوس على حافة الموت يروي عن جرحه وجرحنا الفلسطيني، وسمعتُ صوتَه وهو يقول إنّ الإنسان لا يموت بل يتحوّل زهورًا وأشجارًا. ومنذ ذلك اليوم اختلفتْ علاقتي بالأزهار والنباتات، وصارت أشبهَ بأرواح الموتى وأجسادهم وعقولهم.

المعرّي كان على حقٍّ حين كتب:

خففِ الوطءَ ما أظنُّ أديمَ الـ أرض إلاّ من هذه الأجسادِ

سِرْ، إنِ اسْطَعْتَ، في الهواء رويدًا لا اختيالاً على رفاتِ العِبادِ!

لكنّ ونّوس صاغها بطريقةٍ مختلفةٍ وأكثر قدرةً على مخاطبة أرواحنا الهشّة، فتحدّثَ عن الأشجار والزهور، بحيث صار الهواءُ الذي نتنشّقُه جزءًا من عبير الراحلين.

هذا هو عطرُ الجنّة. هذا ما يَصْنعه، كلَّ يوم، أطفالُ فلسطين. اليوم فَهمتُ لماذا يَقْطع الإسرائيليون أشجارَ الزيتون ويَجْرفون الأراضي المزروعة: إنهم يخافون من أرواحِ الموتى التي صارت أشجارًا وتسلّقتِ الأشجارَ.

قلتُ إنني بكيتُ عندما قرأتُ مقالَ سماح إدريس. والبكاء هو أحدُ مجازات الإنسان الكبرى: إنّه لغةُ ما بعد اللغة، أو لغةُ عجزِ اللغة وعدم اكتمالها. هكذا أحسستُ وأنا أقرأ وصفَه للغسلِ والكفنِ والتّابوت، ورأيتُني أسأل الميتَ لماذا لا يتألّم؟ وأستمعُ إلى صمته الذي هو لغةُ ما بعد البكاء.

لم يعد الرثاءُ ممكنًا، منذ أن قرّر شعراءُ العرب المحْدَثون أنّ أغراضَ الشعر ماتت أو لم تعد جزءًا من قاموس القصيدة. لقد انتهى الرثاء؛ فالرثاء لا يكون إلاّ شعرًا، لأنّ الموت يحتاج إلى القوافي، وإلاّ صار ما نقوله عن الموت مجردَ تأمّلٍ وليس رثاءً.

ربما كانت نهايةُ الأغراض هي أفضلَ إنجازات الشعر الحديث. هكذا نجد أنفسَنا وجهًا لوجه أمام الموت، ولا نَمْلك حياله سوى سلاحٍ واحد: أن لا نصدِّقَه، وأن نُدخلَه في لغة المجاز والاستعارة.

حتى وصفُ اللحظات الأخيرة ليس سوى مجاز المجاز، لأنّها لا تقول سوى بدايةِ الرحلة من الجسد إلى الأشجار. وهذا في رأيي هو التحديدُ الأجملُ للروح، لأنها هواءُ الطبيعة ونسماتُ الحياة.

حين سألتْ عايدة أين ذهبتْ روحُ سهيل، لا بدّ أنّها نظرتْ إلى الأشجار وبكت. فعلى أغصان أشجار لبنان تنعقد الكلماتُ ورودًا حمراءَ تصنع عطرَ حياتنا، وتجعلنا مجرّدَ جزءٍ من سلسلة هذا المدى الأخضر الشاسع الذي تصنعه أرواحُ الموتى الذين نحبُّهم.

**نيويورك**

**(القدس العربي، ٢٠٠٨/٤/١)**

## دمعةُ الثلاثاء: أصابعنا التي تحترق في وداع المعلّم اللبناني د. سهيل إدريس — أحمد دحبور

يحقّ ليوم الثلاثاء، التاسعَ عشرَ من شباط (فبراير)، أن يوصَفَ بأنه دمعةُ الثقافة العربية المعاصرة. فبعد سلسلة غيابات متلاحقة في شهر الكبيسة الحزين هذا، أغمض أبو سماح، سهيل إدريس، عينيْه إلى الأبد، تاركًا تاريخًا أدبيّاً وسجلاً إبداعيّاً سيَشْغلان الأدباءَ والمثقفين العرب إلى أبعد مدًى منظور. وفي بيروت، مسقطِ رأسه، وحبِّه الوطني ــ العربي، وُوري الثّرى، ولا يكاد مشيِّعوه يصدّقون أنّه أصبح في ذمّة التاريخ، مع أنه كان طريحَ الفراش منذ أكثر من سنة، ومع أنّ سنواته ــ وهو المولود عامَ ١٩٢٥ ــ قد أثقلتْ منكبيْه. فمضى مطمئناً إلى أنّ «مَنْ خلّف ما مات» ما دام نجلُه د. سماح إدريس يتابع المسيرةَ، في ظلّ أمّه السيدة عايدة مطرجي إدريس، رفيقةِ عمر مؤسِّس الآداب، وكريمتِها رنا إدريس نوفل، حارسةِ مؤسَّسة الآداب، وبدعمٍ من محبّي الآداب ومثقّفي وطننا العربي الذين يَدينون بالكثيرِ الكثير للدكتور سهيل.

كان يُمْكن ابنَ حيِّ الخندق الغميق البيروتي أن يكون شيخًا سنّيّاً ذا عمامةٍ بيضاءَ، تَدْعمه رغبةُ والديه وثقافتُه البكر. إلاّ أنّ أقداره الوجودية أخذتْه في مساقٍ آخر: فقد قصد عاصمةَ النور في فجر شبابه، وتخرّج من جامعة السوربون الفرنسية، ليعودَ من باريس فورًا إلى بيروت. ولم يكد يَفْرح الأهلُ والمحبّون به، حتى كان مشروعُ تأسيس مجلة أدبية، على مستوى الوطن العربي، يراود خيالَه. فأسّس مجلةَ الآداب، مع جملةٍ شارحة: «مجلة شهرية تُعنى بشؤون الفكر.» كان ذلك عامَ ١٩٥٣، واستقطبت المجلةُ أساطينَ الفكر والإبداع في الوطن العربي، من أمثال ميخائيل نعيمة ورئيف خوري وجبرا، إلى غالي شكري ود. إحسان عبّاس ومطاع صفدي وجورج طرابيشي. وضمّت روّادَ الشعر الجديد جميعًا: السيّاب والملائكة والبيّاتي وقبّاني وحاوي وبلند الحيدري وصلاح عبد الصبور وحجازي والفيتوري ومحيي الدين فارس وفدوى طوقان، وصولاً إلى أدونيس. ولم تَغفل عن الأجيال التالية التي حملتْ رايةَ الحداثة بدأبٍ واقتدار، وقَدّمتْ شخصياتٍ نقديةً سيكون لها أثرٌ ملموسٌ في مسار الأدب منذ أواسط القرن العشرين مثل رجاء النقّاش ومحيي الدين محمد ومحيي الدين صبحي. وخاضت معركةَ الشعر الجديد، والثقافة الحديثة عمومًا، ببسالةٍ مشهودةٍ، دَعَمَها تأسيسُ دار الآداب التي أَطْلعت المثقفَ العربي على عيون الأعمال الأدبية والفكرية في الوطن العربي والعالم.

كما نشر د. سهيل إدريس، الذي أصبح مترجمًا مرموقًا، أعمالَ جان پول سارتر بما فيها **الوجودُ والعدم** وكتبُ الالتزام، غيرَ غافلٍ عن ثقافة حركات التحرر في العالم. وأصدر، على مستوى

**سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)**
**الكاتب، الناشط، المؤسسة**

الإبداع، ست مجموعات قصصية. وله مسرحية تواكب انطلاقةَ المقاومة الفلسطينية بعنوان **زهرة من دم**. أما مسرحيتُه **الشهداء**، فلم تصدرْ في كتاب مستقلّ، بل كانت جزءًا من مجموعته **رحماك يا دمشق**. وله في الفكر والنقد كتابان [مجموعة مقالات]: **في معترك القومية والحرية**، و**مواقف وقضايا أدبية**. وكان قد شرع في نشر مذكّراته على صفحات الآداب، وصدر الجزءُ الأول منها بعنوان **ذكريات الأدب والحبّ**. إلاّ أنّه سبق أن أرّخ لتجربته روائيّاً بثلاثيةٍ أصدرها على امتداد عقد: **الحيّ اللاتيني**، ثم **الخندق الغميق**، وصولاً إلى **أصابعنا التي تحترق**. ومع أنّ **الحيّ اللاتيني** هي درّةُ روايات د. سهيل إدريس، وواسطةُ عقد إنتاجه الابداعي، إلاّ أنّني أؤثر لهذه المناسبة الجليلة أن أقدّم روايتَه الأخيرة، **أصابعنا التي تحترق**، نظرًا إلى ما تشفّ عنه من سيرةٍ ومواقفَ تلخّص جهادَه الأدبي والإنساني.

❖ ❖ ❖

تبدأ الرواية وتنتهي بالثنائي سامي وإلهام. ففي البداية جاءت إلهام ـ وكانت لا تزال شابةً في التاسعة عشرة ـ إلى مكتب مجلة «الفكر الجديد» لتسجّل اشتراكًا، فاستقبلها رئيسُ التحرير سامي. وفي خاتمة الرواية يكونان قد أصبحا زوجيْن ناجحيْن، وإنْ كانت بينهما، شأن الازواج المثقفين، قضايا معلّقةٌ لا بدّ من كشفِ حسابٍ فيها.

وبين البداية والخاتمة يخوض الزوجان معركةَ استمرار المجلة، وسط عجزٍ ماليّ تَفْرضه تناقضاتٌ محلّية وعربية: فالعراق من أهمّ أسواق التوزيع، لكنّ الحكومة الرجعية آنذاك كثيرًا ما كانت تَمنع إدخالَ المجلة إلى بغداد وأخواتها، فيلجأ سامي مضطرّاً إلى تخصيص نسخ معينةٍ للعراق تكون خلوًا من الموادّ التي تثير حفيظةَ الحكّام هناك. ولأنّ هذا لا يكفي لحلّ المعضلة المالية، فسوف يعمل سامي في التدريس الخاصّ، فيعطي دروسًا في اللغة العربية للفرنسيين المتدرّبين في السلك الدبلوماسي. وهو كمثقف حسّاس لا يمكن إلاّ أن يكون ملتزمًا بالقضايا القومية، فيجرُّه التعرّفُ على شابّ جزائري عاملٍ في الجيش الفرنسي إلى التعاون مع هذا الشابّ الذي يبحث عن وسيلة ليلتحق بشعبه الجزائري المقاوم بدلاً من الانخراط في جيش محتلّيه. وتعاونُ سامي مع هذا الشاب يتضمّن مغامرةً وتضحيةً بوظيفته.

وأثناء انطلاقة مجلة «الفكر الجديد» وانتشارها يَفْتح سامي أبوابَه، ومعه إلهام بطبيعة الحال، لمثقفين بارزين من مشارب مختلفة: من وحيد، الملتزم بحزب الهلال، واضعًا ثروتَه التي جناها في المهجر تحت تصرّف الحزب حتى مات مفلسًا؛ إلى كريم، الذي كان في حزب الأرجوانيين، لكنّه ضاق ذرعًا بوفائهم المُبالغ فيه للاتحاد السوفييتي؛ إلى هاني الغريب، المهووسِ بلبنان حتى التفكير في «لبننة العالم»؛ إلى عاصم حلواني، الشاعر المستغرقِ في حبّ النساء وكتابةِ أجمل القصائد في الحبّ والجمال.

وينشئ سامي علاقةً عابرةً بالأديبة الشابة رفيقة شاكر، التي سرعان ما تنتقل إلى ذراعَيْ عصام. وتزوغ عينا عصام على إلهام، التي ترتبك أمام وسامة الشاعر؛ إلاّ أنّ حبّها لزوجها، مدعومًا بتقاليدها المحافظة، يَعْصمها من التمادي. ولكنّ هذا لا ينفي أنّها تتألّم ممّا تعتبره ماضيَ زوجها سامي، الذي سَجّل جانبًا من هذا الماضي في روايته «على ضفاف السين.» غير أنّ معاناتها الحقيقية كانت مع الكاتبة سميحة صادق، التي تلاحق سامي بقصة حبّ وهميةٍ، طالبةً منه أن ينفصل عن إلهام ليكون معها؛ وهو ما يرفضه سامي بحزم، نافيًا أن يكون بينهما أكثرُ من صداقة أدبية أصبح في غنًى عنها.

وتتطوّر الروايةُ دراماتيكيّاً مغذّاةً بتفاصيلَ جديدة: كالضائقة المالية التي تحاصر المجلة، وتردّي وضع وحيد، وطلاقِ عصام، واصطدام إلهام بإحدى المُثليات التي تحاول التهجّمَ عليها لولا صمودُها في وجهها. ويبقى أنّ ما يَحفظ العلاقةَ بين إلهام وسامي هو الحبُّ والقناعةُ بالحدّ الأدنى من شروط العيش الكريم مقابلَ استمرار مجلة «الفكر الجديد» التي جاء نجاحُها على حساب المشروع الروائي لسامي إذ لا يجد وقتًا لمواصلة إنتاجه المتميّز. وهو ما يدعو إلهام إلى الصبر على نزواته أو على شكوكها تجاه نزواته، فيما تتأمّل أصابعَه التي تحترق بنار الإبداعِ والإخلاصِ لمشروعِ عمرهما المشترك: «الفكر الجديد.»

❖ ❖ ❖

كنتُ في السادسة عشرة من عمري عندما أَصدر د. سهيل إدريس روايتَه هذه. وأَذكر أنّ الفضول كان يأكلني لأعرف مَنْ هم الأشخاصُ الحقيقيون الذين يقفون وراء شخصيات هذه الرواية، وذلك بعد أن بالغ النقّادُ ـ محبّين وخصومًا ـ في الاهتمام بمستوى السيرة الذاتية فيها. فلم يكن وحيد وحيدًا، بل هو الكاتبُ اللبناني الكبير سعيد تقيّ الدين، الذي قضى الأعوامَ الثمانيةَ الأخيرةَ من عمره داعيةً متحمّسًا في صفوف الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي أَطلقت عليه الروايةُ اسمَ «حزب الهلال» نسبةً إلى مشروع «الهلال الخصيب» الذي يتبنّاه هذا الحزب. ولم يكن كريم هادي بعيدًا في جوهره عن شخصية الأديب المفكّر رئيف خوري الذي كان عضوًا في الحزب الشيوعي اللبناني ـ وقد أَطلقت الروايةُ على الشيوعيين اسمَ «الأرجوانيين» كنايةً عن اللون الأحمر المرتبط بهم كعلامة وشعار ـ وقد ترك رئيف الشيوعيين ماحضًا إياهم نقدًا مرّاً، لكنّه التقى معهم في نصرة الجزائر. كذلك لا يَصْعب أن ندرك المقصودَ بشخصية هاني الغريب: فهو الشاعر سعيد عقل الذي يتباهى حتى ما يُشْبه الجنونَ بلبنان، رافضًا أيَّ ارتباط قومي له بالعرب. وتبقى شخصيةُ عصام حلواني، الذي يكاد يصرخ على الورق، من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه، بأنّه الشاعر نزار قبّاني. وغنيٌّ عن القول بعد ذلك إنّ مجلة «الفكر الجديد»

هي مجلة الآداب التي أصدرها د. سهيل إدريس، وإنه هو سامي ميمون حسب اسمه في الرواية. أما إلهام فهي رفيقةُ عمره، السيدة عايدة مطرجي إدريس.

لا يَهدف كشفُ المستور الذي أقدمتُ عليه إلى نشر فضيحةٍ أو دخول إلى عالم د. سهيل إدريس من النوافذ؛ فالأبواب كانت مفتوحةً أصلاً. وإنما أمسكتُ عن التعريف بالشخصيات النسوية مخافةَ أن يكون في ذلك تزيُّدٌ يسيء شيئًا ما إلى بعضهنّ. ولكنني أُثبتُ نقطةً تَردُ على مَن اتّهم المؤلّفَ بتبخيس قَدْر الآخرين والإعلاءِ من شأنه الذاتي، وهي أنّ في ذلك افتراءً كبيرًا على أمانة د. سهيل إدريس. فمنذ أن فَتحنا عيونَنا ونحن نعرف عداوةَ الرجل لأفكار القوميين السوريين، لكننا نراه في الرواية منصفًا إلى أبعد حدّ للكاتب سعيد تقيّ الدين، من غير أن يتنصّل من اختلافه مع الحزب القومي. وهو ما ينطبق على موقفه من هاني الغريب، أو سعيد عقل، الذي لم أكن أدري أنّ صداقةً اجتماعيةً كانت تربطه بأسرة السيدة عايدة مطرجي. أما نزار قبّاني فلا خلاف على شخصيته، إذ كان صديقًا وشريكًا في دار الآداب لفترة من العمر يعترف بها د. إدريس بحبٍّ ووفاء. وكان محبّاً للمرحوم رئيف خوري، ولم يَبْخسه قدرَه بتقديم شخصيته من خلال كريم هادي، إذ بدا هذا الأخيرُ مثقفًا موضوعيّاً محترمًا.

على أنّ المرء ليتناسى أنّ الحياة شيء، والفنَّ شيء آخر. فليس ما يكتبه الأديبُ دائمًا تصويرَ تجربة حقيقية مَرَّ بها؛ هذا ما قاله سامي لنفسه في إحدى محطّات الرواية، وكثيرًا ما ردّد هذا المعنى في حديثه إلى شخصياته الروائية، ولاسيّما النساء اللواتي يبدين الكثيرَ من الفضول تجاه بطلات رواياته السابقة: فتذهب رفيقة شاكر، مثلاً، معه إلى أبعد مدًى في المغامرة، مقارنةً قدراتِها على فعل الحبّ بقدرات بطلات روايته «على ضفاف السين.» ونستطيع أن نُبرز شخصيتين، من الواقع والخيال، شَغَلهما هذا الموضوعُ.

أما **الشخصية المتخيَّلة** فهي إلهام، التي بقدْر ما أسعدها حبُّ سامي والاقترانُ به، فقد عذّبها ماضيه، لا كما اطّلعتْ عليه بحكم المعايشة الزوجية وحسب، بل بحكم ما افترضتْ أنّه مدوَّنٌ في رواياته المتخيّلة أيضًا. والواقع أنّ الأمر غايةٌ في التركيب والالتباس: فالروائي قد يعترف بأنّ إحدى شخصياته الروائية مستوحاةٌ من الواقع (وإلهام نفسُها مثالٌ على ذلك)، لكنّ الجذرَ الواقعي للشخصية لا يعني بأيّ حال أنّ حركتَها في الرواية منسوخةٌ عن الحياة حرفيّاً. فالكاتب الذي يصفه النقّادُ بأنه كلّيُّ القدرة، من حيث التدخّلُ في مصائر شخصياته وإملاءُ السلوك والتصرّفات بما يَخدم خطّه الدرامي، لا يمكن أن يؤْخَذ شاهدَ إثباتٍ على أفعالِ مَن يُشْبهون أبطالَه. فهو يرسم الشخصية بخطوط تجعلها شبيهةً بنماذج واقعية، وقد يقدِّم رأيَه في هذه النماذج من خلال الشخصيات الموازية التي جعلها شبيهةً لها في الرواية، ولكنّ الشهادة الحَرْفية ميدانُها اليومياتُ أو التصريحُ الصريحُ المباشر. ود. سهيل ادريس قد كَتَبَ مذكّراتِه بالفعل، أو معظمَها، فلم يَفترضْ أحدٌ أنّه لم يكن ذلك الفتى الذي أراد أهلُه أن يجعلوه شيخًا معمَّمًا لكنّه اختار مصيرًا آخر. وللناقد أو المؤرِّخ أو مراقبِ الترجمة الذاتية أن يجدوا شبهًا بين بطل **الخندق الغميق**، الشيخ الصغير سامي، وبين المؤلِّف سهيل إدريس في فجر شبابه؛ لكنّهم لا يملكون حقَّ إعطاء حكم مدني على سهيل إدريس من خلال قراءتهم لشخصية الشيخ سامي! **فالقراءة النقدية الوحيدة الممكنة للشخصية الروائية هي قراءتُها فنيّاً، بما في ذلك اختبارُ قدرة المؤلِّف على توظيف خبرته الشخصية في خدمة شخصيته المتخيلة.**

وأما **الشخصية الواقعية** التي تعرّضتْ لمحاسبة الكاتب على آرائه في أبطاله وكأنهم الأشخاصُ الذين نَعْرفهم في الحياة، فهو الشاعر اللبناني أنسي الحاج. فقد أخذ على د. سهيل إدريس بقسوة أنه أعطى آراءً غيرَ متساهلة أو رحيمة في مثقفين معروفين. وهو ما أثار حنق د. إدريس، فوصف ما كتبه الحاجُّ بأنه عهرٌ أدبي. وليس هذا الغضبُ إلاّ تتويجًا لتبرّمه بهذه الأحكام الفضولية التي تَصْلح لأوساط النميمة أكثرَ مما تَصْلح للمراجعة النقدية، والتي أثقلتْ عليه وعلى قرينته السيدة عايدة.

ولكنْ يحدث أن تكون الشخصيةُ المشتقّةُ من الواقع هي من الوضوح بما لا يُمكّنك من إيجاد فروق بين الواقعي والمتخيَّل، مثل الشاعر سعيد عقل الذي هو هاني الغريب في الرواية. غير أنّ هذه حالةٌ استثنائية، والاستثناءُ يؤكّد القاعدة.

❖ ❖ ❖

اذا كان الصراعُ هو الدراما في أحد تعريفاتها القوية، فنحن، معشرَ البشر الفانين، شخصياتٌ دراميةٌ في ملحمة الوجود. وما المبدعون إلاّ طلائعُ استكشافٍ لما يجري داخل المشهد الإنساني؛ فضلاً عن أنهم يشاركون، بهذه النسبة أو تلك، في دوّامة الصراع. وبهذا المعنى، لا يختلف معظمُ أبطال هذه الرواية إلاّ بارتفاع درجة حساسيتهم في معترك الصراع. ولكنْ يَحْدث ـ كما تقول إلهام ـ أن تكون الموانعُ التي يصارعها المبدعُ أقوى من فنّه، فهل تراه يكفّ عن أن يكون فنّانًا إذا لم يستطع قهرَها؟ وإذا كان في هذا التساول شيء من التماس العذر للمبدع الذي يستقيل من ساحة الصراع، فإنّ جوابَ سامي سيعيد الأمورَ إلى نصابها عندما يقول إنّ الفنّان يكفّ عن أن يكون فنّانًا إذا تخلّى عن الصراع. ذلك أنّ الصراع هو فرصةٌ للإنسان بصورةٍ عامةٍ لتأكيد وجوده؛ أما بالنسبة إلى الفنّان المبدع تحديدًا، فالصراع هو الفرصةُ الأولى والأخيرة.

وعندما نأخذ برأي هذين الزوجين المكافحيْن، إلهام وسامي، فسنجد أنّ مبدعًا مثلَ وحيد قد أدار بوصلةَ الصراع في اتجاه العمل السياسي: فلقد نذر ثروتَه وذكاءه وسنواته الأخيرةَ من أجل حزب الهلال، وكان يتبرّع من غير أن يطلب منه أحدٌ لدعم مجلة ثقافية جادّة مثل «الفكر الجديد،» وسوف تتردّى أوضاعُه حتى ليطلب العونَ بما يُشْبه استردادَ الدعم الذي قدّمه أيامَ البحبوحة، مع أنّ المجلة كانت قد أعادت إليه قيمةَ ما تبرّع به.

## سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
## الكاتب، الناشط، المؤسسة

وكان يمكن إغناءُ هذه اللحظة الدرامية بالكشف عن بعض معاناة وحيد في سبيل مناعة حزبه، لكنّ الرواية لم تتحْ له أن يَكْشف عن فصول هذه المعاناة، مكتفيةً بحكمٍ حزبيّ مضادّ، وهو أنّه قَدَّمَ ما قدَّم لحزبه بهدف النجاح الشخصي: فتقول إلهام إنه يطمح إلى رئاسة الحزب، ويقول سامي بل إنه يطمح إلى رئاسة البلاد في حال نجاح مشروع حزب الهلال في الوصول إلى السلطة. وقد يكون التفكير في ذلك أمرًا مشروعًا، فمن حقّ وحيد أن يحلم في ذلك الاتجاه؛ ولكنّه تفكيرٌ يَثْلم صوفيةَ فكرة النضال. والأمرُ الفاجع أنّ بوصلةَ الصراع قد ذهبتْ به بعيدًا عن دائرة الإبداع، فتوقّف عن الكتابة، قبل أن يصيب الشللُ أصابعَه (لاحظوا دلالةَ شلل أصابع اليدين بالنسبة إلى الكاتب) ثم يموت.

ويبرز أمامنا أنموذجان نسويان في حالة صراع. فهناك إلهام، التي مِنْ حقّها أن تحمي مملكتَها الزوجية، مدافعةً عن حبّها وعن المجلة التي أصبحتْ شريكةً نوعيةً في تقرير مصيرها. وهناك سميحة صادق، التي تصارع من أجل حبٍّ لا أمل من ورائه. وقد كان د. سهيل إدريس منصفًا مع سميحة هذه عندما قَدّم الملابسات التي أحاطت بحبّها اليائس: فقد أوحى لها سامي بأنّه يشاركها الحبَّ، أو أنه على الأقلّ لم يوحِ بما يناقض ذلك؛ ولهذا عندما أَخذتْ موقفًا سلبيًا من إلهام واعتَبرتْها دخيلةً، فإنها لم تنطلقْ من فراغ، بل من منظومة أوهامٍ زيّنها لها سامي، بدليلِ أنّها توقّفتْ عن مطاردته فورَ انكشاف الحقيقة لها. ومع ذلك يعترف سامي في يومياته بأنّه زار سميحة بعد أن انتهى كلّ شيء. وقد أضاع الكاتبُ فرصةً لكشف تأثير هذا الصراع العاطفي الذي عانته سميحة صادق، فلم يُظْهِرْ ذلك في كتاباتها التي كان من الممكن أن تُثْري المادةَ الدراميةَ للرواية بعنصرٍ جديد.

أما ساحة الصراع التي تستحقّ التأملَ والوقوفَ عندها طويلاً في هذه الرواية، فهي مشروعُ العمر لدى سامي وإلهام، مشروع «الفكر الجديد.»

❖ ❖ ❖

يتطابق الذاتيُّ والموضوعيُّ في هذا الشأن. فمن يقرأ تاريخَ مجلة الآداب، في الواقع وفي شهادة السيدة عايدة مطرجي إدريس وتصريحات د. سهيل، ثم يقرأ روايةَ **أصابعنا التي تحترق**، يقف على حقيقة مؤكّدة: **وهي أنّ هذه المجلة، التي أثّرتْ في مجرى الثقافة العربية الحديثة على امتداد نصف قرن، قد كانت الحبَّ الكبير والمشتركَ لكلٍّ من هذيْن الزوجين اللذيْن أصبحا بفضلها بمثابة أبٍ وأمٍّ لقوافلَ من الأدباء العرب.**

و«الفكر الجديد» - ولنبقَ في إطار **أصابعنا التي تحترق** - هي أكثرُ من مجلة أَنجبتْ إحدى كبريات دُور النشر العربي، بل هي قصةُ صراعٍ مَجيدٍ من أجل ثقافة ملتزمة. وقد كان أولَ ما فكّر فيه سامي بعد عودته من الدراسة في باريس هو إصدارُ مجلة أدبية تتولّى شؤونَ الفكر الجديد. وكان له شريكان مريحان، إلاّ أنهما لا يجاريانه في المزاج الأدبي والمبادرة. وحين قرّر الانفرادَ بالمجلة، فوجئ بأنّ حصّةَ الشريكين، حسب تطوّر القيمة النقدية، قد أصبحتْ كبيرة. ولم يستغلاّه في ذلك، بل اقترحا عليه أن يَنقداه حصّتَه، إذا قرّر الانفصالَ عنهما، بالقيمة التي طلباها منه. ولما كان متحرِّقًا إلى الاستقلال، فقد استدان، وضحّى بثمن الأثاث الذي قدّمه أهلُ إلهام هديةً إليه يومَ الزواج. وكان على الزوجين الشابّين أن يتحمّلا ظروفَ التقشّف للنهوض بالمجلة، حتى إنهما ضمّا مكتبَ التحرير إلى منزل السكن توفيرًا للنفقات.

وحين تعيش أسرةٌ شابةٌ من ريْع مجلةٍ لا دعمَ لها إلاّ مبيعاتُها، فإنّ متابعة أسواق التوزيع تبدو مسألةً ضرورية. وقد وقفتْ في وجهها مشكلةُ العراق، إذ إنّ الساحة هناك أفضلُ سوقٍ للثقافة، لكنّ حكومة نوري السعيد كانت تجعل الرقابةَ بالمرصاد، وكان منعُ توزيع العدد الواحد من «الفكر الجديد» يعني خسارةً في ثمن الأعداد المرسلة، فضلاً عن الحرمان من عوائد البيع. فاضطُرّ سامي إلى تنازل مؤلم، وهو أن يرسل إلى العراق طبعةً خاصةً من كلّ عددٍ من المجلة بعد انتزاع الصفحات التي تتضمّن أفكارًا ومواقفَ ثوريةً ترفضها الحكومةُ العراقية الملَكية. وقد سبّب هذا التنازلُ ألمًا لا يطاق لصاحب المجلة على مستوى المبادئ والأخلاق، فضلاً عن شماتة الخصوم الذين كانوا يُطْلقون على المجلة اسمَ «المجلة ذات الطبعتين.» ولكنْ حين استمرت سياسةُ المنع والمصادرة في العراق، رأى سامي أن يعود إلى سيرته الاولى، وأن يرسل المجلة بطبعتها الواحدة الوحيدة، وليكنْ ما يكون.

والواقع أنّ «الفكر الجديد» لم تعانِ الرقابةَ والمنعَ وحسب، بل كانت تتعرّض أيضًا لحملاتٍ من أدباء لم يُتِحْ لهم مستواهم الذي لا يرضى عنه سامي أن يَنْشروا أعمالَهم فيها. وأضيفُ إلى ذلك الحربَ الضروسَ التي لم يُشِرْ إليها صاحبُ الآداب في روايته هذه، وهي الحرب التي شنّها إدريس شخصيًا ضدّ المنابر التي يختلف معها سياسةً وإيديولوجيةً. وإذا كانت هذه الحرب غيرَ مكلفةٍ على مستوى الريع، فإنّها مكلفةٌ من حيث غيابُ بعض الأقلام. ولهذا كانت مجلة الآداب - المرجعُ الذي يأخذ اسمَ «الفكر الجديد» في الرواية - ترحِّب بالأقلام التي تَهْجر مجلةَ **شعر** وتنتسب إليه، مثل بدر شاكر السيّاب وخليل حاوي وحتى أدونيس الذي كان من الأقطاب المؤسِّسين لمجلة **شعر**؛ أما جبرا فقد نجح في إيجاد المعادلة التي تَجْمع بين المجلتين المتنافستيْن. ولو أشارت رواية **أصابعنا التي تحترق** إلى هذه الوقائع، لوثّقتْ حقيقةً هامةً من تاريخ الصحافة الأدبية العربية في لبنان.

❖ ❖ ❖

يوصَف سامي في ثنايا الرواية، من باب التحبّب والدعابة، بأنه متعهِّدُ أدباء؛ وهو الوصف المعطى للمرحوم د. سهيل إدريس، نظرًا إلى الدور التنويري الأبوي الذي اضطلع به تجاه الأدباء الجُدد من خلال مجلته الرائدة ودار النشر الصامدة. إلاّ أننا، ونحن نَمدح

هذا الدورَ المشهودَ، نَغفل عن ضريبةٍ قاسيةٍ كان يدفعها د. سهيل ـ أو سامي في الرواية ـ لمواصلة النهوض بعبء التعهّد الذي قطعه على نفسه للجيل الصاعد: **فالأصابع، التي كان مقدّرًا لها أن تحترقَ بلهب الابداع، إنما تحترق في نار تحرير المجلة وقراءة المخطوطات، إذ لا يبقى للروائي والقاصّ والمترجم إلاّ القليلُ من الوقت.** وإذا كان د. سهيل إدريس قد نجح في اختطاف وقت مضيء للترجمة، فمَنَحَ المكتبةَ العربيةَ عددًا من الكتب النوعية ـ ولا سيما الوجودية ـ التي قام بنقلها إلى العربية، فإنه لم يتمكّن من إنجاز ما كان يمكن أن يشكّل الجزءَ الرابع من ثلاثيته: **الخندق الغميق، والحيّ اللاتيني، وأصابعنا التي تحترق.**

ودعوني أتزيّدْ بالخروج على النصّ، فأشير إلى السيدة عايدة مطرجي إدريس، شريكتِه في دفع ضريبة متعهّدي الأدباء. فهي كانت قد نَشرتْ مجموعةَ قصص ناجحة، وتَرجمتْ بعضَ الأعمال المتميّزة ـ لعلّ أشهرَها روايةُ **الغريب** لألبير كامو ـ ثم خفّت وتيرةُ إنتاجها الكتابي بعد ذلك حتى ما يُشْبه التلاشي بسبب الانشغال في شؤون المجلة (والأسرة). والمجلة غولٌ تأكل وقتَ الإبداع مرتين: مرةً بالمشاغل التي لا توفِّر حيّزًا للكتابة، ومرةً باستغراق المبدع في شأنٍ تفصيليّ خارج الوقت الذي يتطلّبه تأملُ أحوال الشخصيات الروائية، فلا يجد الكاتبُ أو الكاتبةُ وقتًا لإنضاج العمل المرجوّ وإخراجه إلى النور.

وسامي، الذي كان يتأمّل مأساةَ صديقه وحيد الذي شغله حزبُه عن مشروعه الإبداعي المتميّز، يعي بشكلٍ باعثٍ على الحسرة أنّ «الفكر الجديد» ليست قراءةَ النصوص وإجازتَها وطباعتَها فحسب، بل تتطلّب أيضًا رقابةً ذاتيةً وموضوعيةً على مسيرة المجلة ومتابعة خطّها البياني. **وزادت همومُ دار النشر على هموم المجلة، فرضي مسلّمًا للأمر الواقع بدور «متعهِّد الأدباء،» وهو ـ لو يدري ـ دورٌ ستَحْفظه له الأجيالُ العربيةُ بالعرفان والامتنان والإكبار.**

أعرفتم، بعد هذا العرض، لماذا اخترتُ هذه الرواية، تحديدًا، لمناسبة تكريم د. سهيل إدريس غداةَ رحيله غير المفاجئ؟ إنّها محاولةٌ حزينةٌ للاقتراب الحميم من هذه الشخصية العامة التي تُشرِّف جيلَها. ولعلّي تجاوزتُ مألوفَ النقد الأدبي الذي يركِّز على النصّ، مع أنّني أرجو ألاّ أكونَ قد فارقتُ النصَّ بشكلٍ مُبالَغٍ فيه، تاركًا للهامش الذي يتيحه النقدُ الثقافي أن يجوسَ في التجربة الشخصية لهذا المعلِّم الذي ترك أثرًا عميقًا في شخصيتي كما فعل مع معظم أبناء جيلي.

وأرجو أن تكون هذه المراجعةُ تحيةً لأصحاب الآداب الباقين على العهد، بأصابعهم التي لا تكفّ عن الاحتراق لإضاءة المشهد الأدبي العربي المعاصر!

**رام الله**

**(الحياة الجديدة، ٢٠٠٨/٣/٥)**

## الأمثولة التي نتمسّك لها

**عبد العزيز المقالح**

فَقدت الحياةُ الأدبيةُ العربيةُ برحيل الدكتور سهيل إدريس واحدًا من أهمّ أقطابها وأكثرهم حضورًا في واقع الإبداع الأدبي العربي المعاصر، ليس بإنتاجه الروائي فحسب، وإنما أيضًا بمجلته الأشهر في الوطن العربي، مجلة الآداب، ومن ثم بدار النشر التي تحمل اسمَ دار الآداب، بكلّ ما توفّر لهما (أيْ للمجلة وللدار) من مشروع ثقافيّ انفتح على الإبداع الحديث، وحَرِصَ على تقديم أفضل النّصوص. ولا أظنّ أنّ مطبوعةً عربيةً أدبيةً استطاعت أن تَسكن في وجدان الجيل المعاصِر من الأدباء كما كانت مجلةُ الآداب، هذه النافذةُ المشرعةُ على العصر، التي فسحتْ صدرَها للتجارب الجديدة الناضجة، فكانت أهمَّ حاضنةٍ للشعر العربي الحديث وللتجارب القصصية والروائية وللفكر الحديث. وبذلك استحقّ صاحبُها ورئيسُ تحريرها الدكتور سهيل إدريس صفةَ الريادة في أصدق معانيها.

يعود ارتباطي بمجلة الآداب إلى أوائل الستينات من القرن المنصرم، عندما بدأ وعيي ينفتح على القراءات والكتابات الجديدة. ثم بدأتُ أنشر فيها قصائدي الأولى ابتداءً من ستينات القرن نفسه: فقد نشرتُ أول قصيدة لي في الآداب عامَ ١٩٦٦، وتابعتُ النشرَ بعد ذلك، فمنحني تواصلُ النشر ثقةً بنفسي وبما أكتبه من شعر. وكما كانت مجلةُ الآداب الحاضنةَ الأهمَّ لقصائدي الأولى، فقد كانت دارُ الآداب دارَ النشر الثانية التي احتضنتْ كتاباتي النقدية وبعضَ أعمالي الشعرية. وصرتُ على مدى أربعين عامًا أكنّ لصاحب المجلة ولدار النشر هذه تقديرًا عاليًا. وقد جمعتني به لقاءاتٌ كثيرةٌ، هناك في القاهرة، وهنا في صنعاء. وكان مثالاً للأب الروحي لعشرات، بل لمئات المبدعين في أنحاء الوطن العربي.

ورغم أحزاني التي رافقتْ رحيلَ شقيقي الذي تزامَنَ مع رحيل هذا الرائد الأب، فقد استطعتُ أن أنتزع وقتًا قصيرًا لأبعثَ لأسرته، ممثّلةً في نجله الدكتور سماح إدريس، ببرقية العزاء الآتية، مسجّلاً فيها اعترافي بما قدّمه الراحلُ الكبيرُ لي ولجيل من الشعراء والكتّاب العرب على امتداد الساحة. وهذا نصُّ البرقية:

صديقي العزيز الدكتور سماح إدريس المحترم،

تحية طيبة وبعد،

فقد تزامن رحيلُ والدكم العظيم الدكتور سهيل إدريس مع وفاة شقيقي رضوان المقالح، وكأنّ ملاكَ الموت كان على موعد مع بيروت وصنعاء في ساعةٍ واحدة. وبهذا التزامن الموجع تضاعَفَ

## سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
## الكاتب، الناشط، المؤسسة

حزني، واختلطتْ مشاعرُ الأسى، فانشغلتُ عن الكتابة إليكم معزّيًا ومواسيًا إيّاكم في هذا المصاب الذي أعتبره مصابي الشخصي. فأنتم تعرفون مدى العلاقة الوثيقة والحميمة التي ربطتني بالراحل العظيم منذ أواخر ستينات القرن المنصرم. وكما كان له فضلُ تقديمي إلى القارئ العربي شاعرًا عن طريق مجلة الآداب، فقد كان له أيضًا فضلُ تقديمي ناقدًا وباحثًا عن طريق نشر معظم كتبي في دار الآداب، التي كانت وستبقى منارةَ إشعاعٍ وتثقيفٍ وتنوير، ويبقى الكتابُ الصادرُ عنها كالعملةِ الصحيحةِ التي لا تَقبل الغشَّ والتزييف.

لقد كان الدكتور سهيل، الإنسانُ الودودُ المتواضعُ كما عرفتُه، والإنسانُ المبدعُ المناضلُ كما عرفه الجميع، واحدًا من الشخصيات الاستثنائية. ورحيلُه في هذا الظرف الدقيق من تاريخ الأمة، ومن تاريخ القلب منها، وهو لبنان، يدعو إلى التأمل ومراجعة دور هؤلاء العمالقة الذين لم يكونوا فخرًا للأقطار التي ينتمون إليها بالميلاد، وإنما فخرًا للأمة جميعًا. فقد أثبتوا في أقسى الظروف وأشدّ المحن انهم أبرُّ أبنائها وأصدقُهم في المواجهة والتحدّي. ومَنْ ينسى دورَ الآداب ومواقفَها الخالدةَ مع الأمة تاريخًا ومعاصرةً، مقاومةً وتحديًا؟! وإنّي لأكتبُ هذه السطورَ وأمامي مجلّداتُها، وما أفاض ويفيض به تاريخُها من إبداعٍ ومواقفَ شامخةٍ في سبيل الثقافة والحريات والعروبة.

وبالمناسبة، فلقد كان في مقدور الدكتور سهيل أن ينكفئ على إبداعه الروائي وأن يغدو واحدًا من أهمّ كتّاب الرواية في العالم كما أثبتتْ بداياتُه الرائعة. **لكنه آثر المواقفَ المبدئيةَ على كلّ شيء، فأعطى وقتَه وجهدَه للمجلة، ثم لمواجهة خصوم الأمة، ولتأسيس اتحاد الادباء والكتّاب العرب، وأخيرًا للجهد المعجمي الذي يَرْبط حاضرَ الأمة اللغوي بماضيها، في تضحيةٍ نادرةٍ وانكبابٍ عميق.** وعلى الرغم من أنّ طريقه لم تكن معبَّدة وسالكةً، فقد كان قادرًا على تجاوز كلّ المعوّقات والصعاب بصبرٍ وجَلَدٍ منقطعَي النظير .

وكان لا يعترف بالنهايات، وإنما بالبدايات. وذلك كان شعارَه، أو بالأصحّ أمثولتَه التي حدّدها في نهاية روايته الفريدة، **الحيّ اللاتيني**، حيث تقول الأمُّ لبطل الرواية: «لقد انتهينا الآن يا ابني، أليس كذلك؟» فيجيبها الابنُ بكلّ العناد والإصرار: «بل الآن نبدأ يا أمي.»

إنّ شعارَ البدء هذا هو الأمثولةُ التي ينبغي ان تتمسّكَ بها الآدابُ، دارًا ومجلةً، وأن يتمسّكَ بها كلُّ عربي يؤمن بأنّ المستقبل للأمة وللحرية وللثقافة وللمقاومة.

**صنعاء**

**(جريدة ٢٦ سبتمبر)**

## رمزٌ كبيرٌ يعيش فينا

**عبد الرحمن مجيد الربيعي**

كنتُ أعرفُ أنّ حالة أستاذنا وصديقنا د. سهيل إدريس الصحيّة صعبةٌ وحرجة، فماذا بعد الفشل الكلويّ الذي يضطرّه إلى الذهاب ثلاثَ مرّاتٍ إلى المصحّة لغرض غسل الكلى؟

ورغم المواظبة على العلاج، إلاّ أنّ مقاومةَ الجسد تَضْعف بمرور الأيام. وكنتُ أتابع حالته بالهاتف، باتصالاتي مع كريمته رنا، ومع زوجها وابن خالتها الصديق نبيل نوفل، اللذيْن تولّيا شؤونَ دار الآداب للنشر، في حين تولّى نجلُه د. سماح إدريس شؤونَ مجلة الآداب التي أضاف إليها الكثيرَ بنَفَسِه الشابّ وحماسِه وشجاعته ـ وكلُّها صفاتٌ وَرِثَها عن سهيل إدريس الأب، وليس بمقدور أحدٍ أن يوقفه عن أداء هذا الدور.

وعندما نَقَلَ لي الصديقُ الشاعرُ منصف المزغنّي نبأَ رحيل إدريس بالهاتف، كنتُ عائدًا لتوّي من المغرب محاولاً أن أجد راحتي في النوم. صحوتُ على رنين الهاتف، وجاءني الخبرُ الذي كنتُ أتوقّعه وأصبحَ مسألةَ وقتٍ بالنسبة إلى أسرته على ما علمتُ، إذ كنتُ قبل يومين فقط من رحيله في معرض الدار البيضاء مع رنا ونبيل.

أقول من أعماقِ قلبي إنّني كنتُ أحسّ بأنّ د. سهيل إدريس كان قريبًا منّي إلى أبعد حدّ، وكأنّني من أسرته التي أعرفها واحدًا واحدًا، وعايشتُها في سنواتي البيروتية في لقاءاتٍ تضمّ أصدقاء نبيلين ورائعين، أَذْكر منهم: وليد غلميّة، ومحمد يوسف نجم، وبلقيس الراوي قرينةِ الشاعر نزار قباني، وديزي الأمير، وآخرين. وكانت السيدة عائدة مطرجي إدريس حاضرةً بأمومتها وصفاتها، وهي التي هاجمتْ رواية إدريس الشهيرة **الحيّ اللاتيني**، فتحوّلَ الهجومُ إلى زواج وأُسْرة وصفتْها مرةً القاصّةُ ديزي الأمير بأنّها «من أجمل الأُسر» التي عرفَتْها.

لن أنسى أنّ الآداب كانت أولَ مجلة عربية تقدِّمني بعد أن قدّمتْ عددًا كبيرًا من أبناء جيلي، إذ نشرتْ لي قصتي «الخور اللذيذ» عام ١٩٦٢. وقتها، كانت الآداب المجلةَ المركزيةَ للأدب العربي كلّه، ويكفي أن تَنشر فيها نصّاً واحدًا لتُعْرف عربيّاً ـ وأقول هذا غيرَ مُبالغ.

وبمرور السنوات توثّقتْ علاقتي بسهيل إدريس حتى صرتُ من أقرب أصدقائه، وربما كنتُ أولَ صديق يتصل به في زياراته لتونس وقبلها لبغداد. وما زلتُ حتى يومنا هذا أعيش حبَّ الآداب (مجلةً ودارًا). ويَعْرف الأصدقاءُ أنّني إذا ما ذهبتُ إلى

معرض للكتاب، سواء في القاهرة أو الدار البيضاء أو تونس، فإنّ من يَبْحث عنّي سيجدني في جناح هذه الدار.

عاش د. إدريس محاربًا، مؤمنًا بأنّ العرب أمةٌ واحدة وإنْ تعدّدتْ أقطارُهم. ولذا آمن بعبد الناصر إيمانًا كبيرًا، ودافع عن مواقف عبد الناصر في السِّلْم والحرب، وفَتح مجلةَ الآداب للأدباء المصريين الذين لحق بهم الضيْرُ في عهد خليفته السادات، كما نَشرَ مؤلَّفاتهم، وامتلك جرأةَ نشر رواية نجيب محفوظ **أولاد حارتنا** التي مُنع طبعُها في مصر.

وتحمَّس د. سهيل للتجارب الجديدة في الشعر العربي الحديث، ونَشر للمصرييْن صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ديوانيْهما الأوّليْن، ونَشر للبيّاتي والسيّاب وبلند الحيدري ونازك وحسب الشيخ جعفر ومحمد علي شمس الدين وشوقي بزيع وفدوى طوقان وخليل حاوي وسامي مهدي ومحمد البريكان وحميد سعيد وعبد الرزّاق عبد الواحد وغيرهم من الشعراء. أما القصّاصون، سواء من الروّاد أو الشباب، فهم لا يُعدّون: من عبد السلام العجيلي إلى حنّا مينة وسليمان فياض وشوقي بغدادي ومهدي عيسى الصقر وبهاء طاهر، وصولاً إلى جيل الستينات فما بعدهم. وما أكثر الأسماء من العراق ومصر والخليج والمغرب العربيين!

وفي السنوات الأخيرة عُنيتْ دارُ الآداب بالرواية مترجمةً أو موضوعةً، فصدرتْ عنها أبرزُ الأعمال الروائية العربية. ولذا لا نستغرب عندما تحصل هذه الدارُ على جائزتين من جوائز البوكر العربية التي استُحدثتْ هذا العام، حيث نشرتْ أعمالاً روائية غايةً في الجرأة، والكثيرُ منها هي الأعمال الأولى لكتّابها، مثل **حبّ في السعودية** لابراهيم بادي (السعودي) و**سرير الأسرار** للبشير الدامون (المغربي) اللتيْن قرأتهُما أخيرًا. وكلُّ هذا ثمرةُ التوجيه الذي رسمه الراحلُ العظيمُ لدار النشر.

وكان سهيل إدريس نفسُه قد أصبح روائيّاً بارزًا بعد كتابته عددًا من الروايات المهمة، وأكثرُها شيوعًا روايتُه **الحيّ اللاتيني**، وكذلك روايتاه **الخندق الغميق** و**أصابعنا التي تحترق**، وعددًا من المجاميع القصصية. كما أنّه نَشر الجزءَ الأول من سيرته التي كانت نموذجًا للسيرة الشجاعة غير الخائفة. وقام د. سهيل إدريس بترجمة الأدب الوجودي إلى العربية، فعرفه القرّاءُ العربُ بفضل هذه الترجمات مثل أعمال سارتر وسيمون دو بوڤوار وألبير كامو، علمًا أنّ قرينته عايدة قامت هي الأخرى بترجمة بعض هذه الأعمال.

وأنجز د. سهيل قاموسَ **المنهل** الفرنسي ـ العربي الذي يُعَدُّ بين أهمّ المعاجم العربية. وكان يشتغل بدأب مع نجله د. سماح لإنجاز معجم **المنهل** العربي ـ العربي، ولكنّ حالته الصحية حالت دون إتمامه، وقد علمتُ أنّ د. سماح يواصل العملَ فيه لإنجازه.

لكنّ د. سهيل كان محاربًا ـ كما قلتُ ـ من أجل الكرامة العربية، منتصرًا لأمته، ذائدًا عنها في مواقفه وكلماته. وقد مات وجرحُ العراق يَكْبر في قلبه، وهو الذي عاش جرحَ فلسطين في كلّ حياته. مات متألِّمًا، هكذا أُحسّ. لكنه ذلك الألم الذي لا يحسّه إلا الشّهداءُ وكبارُ المبدعين.

رحمك اللّهُ يا أبا سماح، وسنفتقدكَ وسط ليالينا الظلماء.

**تونس**

**(جريدة الشروق)**

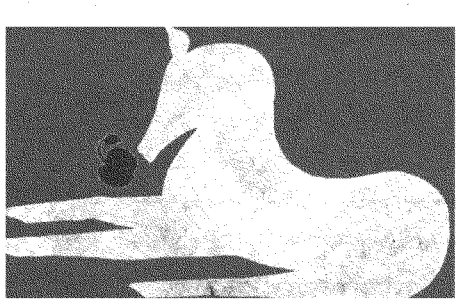

---

**سامي مهدي، ولد في بغداد عام ١٩٤٠. درس الاقتصاد في جامعة بغداد وتخرج عام ١٩٦٢. عمل في حقلي الثقافة والإعلام، وترأس تحرير عدد من الصحف السياسية والمجلات الثقافية، وتولى إدارة عدد من المؤسسات الثقافية والإعلامية، وأمضى في باريس ما يقرب من أربع سنوات مستشاراً صحفياً ومديراً للمركز الثقافي العراقي هناك. صدرت له حتى الآن أربع عشرة مجموعة شعرية منها: الأسئلة، الزوال، سعادة عوليس، بريد القارات، مراثي الألف السابع، الخطأ الأول، مدوّنات هابيل بن هابيل. وله عدا ذلك ثلاث مجموعات لم تنشر بعد هي: أبناء إيننا، أيام، نهايات. أما في حقل الدراسات الأدبية فله سبعة كتب منشورة.**